البحرين



خلال السيطرة البرتغالية ١٥٠٧ - ١٦٠٢

بقلم : د . صبري فالح الحمدي

مقدمة تاريخية

تقع البحرين في الخليج العربي وتتكون من عدة جزر أهمها (المحرق) و (سترة) تبلغ مساحتها ٦٦٢ كيلوا متراً مربعاً[١] . وعرفت منذ القدم بلؤلؤها المعروف بالحسن والجودة كما تمتعت بمركز تجاري هام نظراً لموقعها الجغرافي المتميز في المنطقة[٢] . فضلا عن أنها تعد حلقة وصل بين موانئ الخليج العربي والمحيط الهندي وشرق أفريقيا وقد وصف البحرين الرحالة العربي "ابن بطوطة" الذي توقف عندها بأنها : [مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار][٣] . أما سبب تسميتها بالبحرين فيرجع إلى وجود ينابيع طبيعية حلوة تتفجر في قاع الخليج فيتدفق منها الماء العذب وسط ماء البحر الأجاج[٤] .

ويظهر لنا من الوثائق التاريخية أن البحرين كانت مركزاً تجارياً مهماً في العهد السومري وخاصة بين العراق وحوض السند(٥) . وتشير تلك المصادر إلى أن سكان البحرين قبل الإسلام كانوا ينتمون إلى القبائل العربية مثل قبيلة بني بكر وبني تميم وبني عبد قيس ثم تبعتهم جماعات عربية أخرى عبرت مياه الخليج إلى الساحل الشرقي في فترات تاريخية منتظمة(٦) .

وخلال العصور الإسلامية المختلفة ظلت البحرين تابعة للدولة العربية الإسلامية أيام الخلافة الراشدية والأموية والعباسية ثم خضعت لسيادة عهد الأمراء والحكام الذين انفصلوا عن العباسيين(٧) . ويستدل مما ذكره الرحالة العرب الذين زاروا البحرين في النصف الأول من القرن الثاني عشر أن سكان البحرين كانوا يخضعون لحكم شيوخ محليين(٨) .وعند مجيء البرتغاليين إلى الخليج العربي أصبحت البحرين إحدى معاقلهم في بداية القرن السادس عشر وازداد التنافس بينهم وبين قوى محلية وأجنبية للسيطرة على طرق التجارة وقواعد التموين المهمة في المنطقة(٩) .

البرتغاليون والبحرين

تعد سنة ١٥٠٦ نقطة تحول في حركة الاستعمار الأوروبي في جنوب آسيا ففي تلك السنة غادر "ألفونسو البوكيرك" ليتسلم منصبه الجديد كنائب لملك البرتغال في الهند(١٠) . وكانت خطته تقوم على ضرورة السيطرة على منافذ التجارة البحرية متمثلة بالبحر الأحمر وعدن وجنوب الجزيرة العربية وسواحلها والبحرين والقطيف والبصرة(١١) . وكان واضحاً أن هناك دوافع جديدة لهذا التوجه البرتغالي وعلى ما يبدو فإن ضعف القوى السياسية العربية وانشغالها بخلافاتها المحلية ورغبة البرتغاليين في احتكار تجارة الشرق وانتزاعها من العرب، كذلك الروح الصليبية التي كانت

لا تزال تسيطر على عدد من رجال البحرية البرتغالية أمثال "البوكيرك" كلها أسباب زادت من اندفاع البرتغاليين نحو بلاد الشرق(١٢) . كما نلاحظ أن القوى الإسلامية الكبرى حينذاك كالمماليك والصفويين والعثمانيين، كانت في صراع دائم فيما بينها باستثناء المماليك الذين تصدوا للغزاة عسكرياً وكان اصطدام البرتغاليين أكثر وضوحاً مع القوى الإسلامية المحلية سواء أكان ذلك في شرق أفريقيا، أو الخليج العربي والجزيرة العربية(١٣).

لذلك استغل البرتغاليون تلك الظروف المواتية لتصفية النفوذ العربي التجاري المسيطر على تجارة الشرق وطرقها البحرية وقوافلها التجارية . وبدأوا نشاطهم العسكري ضد القوى العربية وذلك بتأسيس قاعدة بحرية لهم وهي قلعة هرمز في مدخل الخليج العربي كي تضمن حماية مواصلاتهم البحرية ومصالحهم المتنامية من وإلى منطقة الخليج العربي وتبع ذلك استيلاؤهم عسكرياً حوالي عام ١٥٠٥م على جزر البحرين(١٤) . ويبدو أن البحرين كانت خلال تلك الفترة جزءاً من أملاك مملكة هرمز وخضعت البحرين للنفوذ البرتغالي إثر خضوع مملكة هرمز للنفوذ البرتغالي، فحينما تمكنت القوات البرتغالية بأسطول مكون من ٢٧ سفينة بقيادة "البوكيرك" من احتلال هرمز عام ١٥١٥م تم توقيع اتفاقية مع ملكها العربي الذي أصبح بموجبها ملكاً على البحرين باسم ملك البرتغال وتعهد البرتغاليون بمساعدة الفرس على غزو كل من البحرين والقطيف ومعاونة الشاه بالقضاء على الحركات الانفصالية للبلوش في مكران وذلك بسبب الاضطرابات بالمدينة والتي وقع خلالها ملكها في أسر الثوار وأدت لرفض البرتغاليين التعاون مع الصفويين(١٥) . من جانب آخر نلاحظ استمرار الحملات العسكرية البرتغالية لإحكام السيطرة على البحرين وما جاورها من مناطق الخليج العربي ففي عام ١٥٢١م تمكن البرتغاليون بقيادة "أنطونيو كوريا" من فرض سيطرتهم الكاملة على البحرين طيلة القرن السادس عشر ورمموا فيها قلعة العجاج التي لا تزال باقية حتى اليوم(١٦) . وفي عام ١٥٢٩ شهدت البحرين انتفاضة وطنية ألحقت خسائر بالقوات البرتغالية التي أجبرت على الانسحاب(١٧) . إلا

أن المؤرخين الأجانب الذين يصفون تلك الغزوة العسكرية بأنها كانت بمثابة الكارثة للمهاجمين الذين اضطروا للتراجع إنما يعزون سبب ذلك إلى نقص في معدات المهاجمين وليس إلى صلابة المقاومة العربية . ويعتقد المؤرخ التركي "أوزبران" أن سبب تلك الحملة يرجع إلى أن حاكم الجزيرة الرئيسي وهو ابن عم شرف الدين "أمير هرمز" ثار ضد هرمز وامتنع عن دفع الجزية التي كان يجب أن يدفعها وتكونت الحملة البرتغالية من ٥ سفن وحوالي ٥٠٠ رجل و٦ سفن مزودة بالمدفعية بقيادة "سيماو داكونها" إلا أنه أيضاً يشير إلى أن فشل الهجوم البرتغالي يعود إلى نقص في البارود وانتشار المرض[١٨] .

وقد أفاد البرتغاليون كثيراً من الخلافات المحلية بين أبناء الخليج العربي مما عزز نفوذهم في المنطقة حيث قامت هرمز عام ١٥١١م بإرسال قوة بحرية إلى البحرين نجحت في السيطرة عليها وانتزاعها من شيوخ بني جبر الذين عاودوا السيطرة عليها . وفي عام ١٥٢٠ تعرضت البحرين لهجوم برتغالي هرمزي مشترك أثناء تغيب السلطان "مقرن بن زامل" من بني جبر الذي كان قد سافر إلى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج . ورغم بسالته المميزة في القتال أثناء عودته فقد وقع أسيراً في أيدي البرتغاليين الذين بادروا بإعدامه . كما عاود البرتغاليون احتلالهم العسكري للجزيرة عام ١٥٨٢ تقريباً ومكثوا فيها أربعين عاماً إلى أن طردهم اليعاربة[١٩] عام ١٦٢٢م[٢٠] . لذلك يرى البعض أن سقوط البحرين بأيدي البرتغاليين قد حقق انتصارهم الكامل على عرب الخليج وفتح أمامهم كل شطآنه وجزره وخلجانه، وهو انتصار لأوروبا على العرب المسلمين في الشرق وذلك لأن الأسبان والبرتغاليين كانوا في نفس الوقت تقريباً قد قضوا على آخر من بقي من العرب والمسلمين في الأندلس، وأنهوا آخر أثر من آثار الحكم العربي الإسلامي في قارة أوروبا كلها[٢١] .

الفرس والبحرين

ظلت أنظار الفرس وعبر حقب التاريخ المختلفة تتطلع إلى سواحل

الخليج العربي وجزره بغية السيطرة عليه وذلك لأهميته الكبيرة في الحفاظ على مصالحهم في المنطقة وبسبب أهمية البحرين في إدامة علاقات الفرس التجارية مع الهند، فقد تركزت جهود حكام فارس للسيطرة عليها، وقد استغل الفرس "الصفويون" فرصة انشغال الأتراك في حروبهم في أوروبا فاستولوا على الجزر في الخليج العربي ومن ضمنها جزيرة البحرين[٢٢] . يرى الكثير من المؤرخين أنه كان بإمكان بلاد فارس باعتبارها الكيان السياسي الوحيد خلال تلك الفترة أن تضطلع بدور إيجابي في التصدي للغزو البرتغالي إلى جانب المماليك أو العثمانيين، ولكن واقع الحال يشير إلى أن الشاه "إسماعيل" بعد هزيمته أمام الأتراك في معركة جالديران عام ١٥١٤م أصبح أكثر تلهفاً للتحالف مع الأوروبيين ضد الدولة العثمانية[٢٣] .

وتعترف المصادر الأجنبية أن المؤرخين العرب من أمثال ابن الأثير وابن خلدون يذكرون أن سكان البحرين وإن كانوا يعترفون بسيطرة ملوك الفرس عليهم إلا أنهم كانوا يسمحون لهم على الدوام باختيار شيوخهم[٢٤] . ذلك أن النفوذ السياسي للفرس في المنطقة قد ارتكز على الوجود العربي الذي هو العمود الفقري لحالة الرفض التي سادت منطقة الخليج العربي ضد السيطرة البرتغالية ومما يعزز ذلك أنه في سنة ١٥٧٨م تولى الشاه عباس الحكم في إيران، بعد أن صرف سنوات عديدة من حكمه لتدعيم مركزه في الشمال تماماً كما فعل الشاه إسماعيل مما يدل على أن مركز ثِقَل الدولة الصفوية كان في آسيا الوسطى بينما شواطئ الخليج الشرقية كانت تخضع لقبائل عربية خالصة أو عربية مختلطة بالفرس ولنجاح الشاه في أي عمل ضد البرتغاليين كان عليه أن يتمتع بتأييد تلك القبائل[٢٥] .

وقد استغل الأوروبيون النزاع الفارسي العثماني للحصول على بعض المكاسب من الشاه عباس الأول وذلك بتقديم العون له ضد الدولة العثمانية مقابل السماح للمبشرين بالعمل في بلاده وتحسين معاملة المسيحيين في فارس وإعادة البحرين التي أجبر البرتغاليون على الخروج منها عام ١٦٠٢م ولكن سرعان ما جرت اتصالات بين ركن الدين مسعود حاكم البحرين "والهردي

خان" حاكم فارس من أجل طرد البرتغاليين والذي بعث بقواته إلى البحرين بقيادة "معين الدين فالي" والتي تمكنت من الاستيلاء على البحرين عام ١٦٠١م مما دفع حاكم هرمز البرتغالي إلى إرسال حملتين عسكريتين لحصار الجزيرة غير أن حاكم فارس لم يلبث أن بعث بعض قواته إلى ميناء "جمبرون" لإجبار البرتغاليين على رفع حصارهم عن البحرين لكي يتسنى له التصدي لتلك القوات وقد أفاد "الهردي خان" من فرصة انسحاب البرتغاليين من البحرين واشتباكهم مع القوات الفارسية أمام ميناء جمبرون فقام بإكمال سيطرته على البحرين وتخليصها من أيدي البرتغاليين عام ١٦٠٧م بعد احتلال دام ما يقارب القرن وهكذا خضعت البحرين لاحتلال جديد وهو الفارسي بعد زوال البرتغالي عنها[٢٦] .

إن النجاح الذي حققه الفرس في الاستيلاء على البحرين أثار تساؤلات كثيرة حول تمكنهم من ذلك رغم افتقادهم لقوة بحرية فاعلة بالمنطقة وضعف خبراتهم على خوض غمار البحر والقدرة على ركوبه وعلى ما يبدو فإن البرتغاليين كانوا يريدون تخفيف أعبائهم العسكرية فانسحبوا من تلك الجزر مكتفين بما كان لهم من سيطرة واضحة على مدخل الخليج العربي وربما اعتقدت أسبانيا المسئولة وقتذاك عن البرتغال أن بإمكانها الاستفادة من الصراع العثماني الفارسي في الشرق وذلك بالتقرب من الفرس في نظير تنازلات لا تعني أسبانيا مباشرة كالتنازل عن البحرين[٢٧] . ومما حملنا على هذا الاعتقاد الخطاب الذي أرسله فيليب الثاني إلى نائب الملك في الهند عام ١٦٠٧ والذي يأمره فيه بمحاولة استرداد البحرين لمنع وقوعها في يد العثمانيين نقل هذا الخطاب "أدميات" المعبر عن وجهة النظر الفارسية وعُدَّ هذا العمل أول تجربة لقوة الفرس ضد البرتغاليين وبذلك فشل البرتغاليون في استرجاع البحرين إلى الأبد[٢٨] .

وحسبما ذكره "تكسيرا" الرحالة البرتغالي الذي زار الخليج العربي عام ١٦٠٤م أنه حالما تمت السيطرة على البحرين تم تعيين وزير فارسي لإدارتها مع حامية فارسية تعدادها ٨٠٠ رجل[٢٩] .

التحالف البرتغالي الفارسي

كان لابد أن تلتقي الأهداف والمصالح الفارسية البرتغالية في مواجهة القوى العربية الناشطة في منطقة الخليج العربي والتي أصبح لها نفوذ متزايد على الملاحة وطرق التجارة المؤدية إلى بلاد الهند ويقينا فإن البرتغاليين قد استغلوا النزاع الفارسي العثماني لكسب الفرس إلى جانبهم تحقيقاً لأهدافهم المعروفة هناك ويشير إلى تلك الحقيقة بوضوح "البوكيرك" ذاته في مذكراته حينما أكد أنه عرض وضع الأسطول والجيش والمدفعية البرتغالية في خدمة الشاه إسماعيل في حربه ضد السلطان العثماني[٣٠] كما أرسل البرتغاليون سفارات إلى إيران للتباحث مع الشاه المذكور في شأن مشروعات دفاعية وهجومية ضد الدولة العثمانية التي بدأت تتطلع هي أيضاً للسيادة على الخليج العربي، من جهة أخرى نلحظ أن البرتغاليين حينما وجدوا أنفسهم في وضع لا يستطيعون معه الصمود بوجه العرب الرافضين لوجودهم في المنطقة، اتصلوا سراً بالفرس واتفقوا معهم على أن يسلموا البحرين إليهم ذلك لأن الفرس كانوا على الدوام في تحالف مع البرتغاليين ضد عرب الخليج وهم أيسر تفاهماً مع البرتغاليين من العرب الذين ظلوا متمسكين بحقوق بلادهم في التحرر والسيادة الكاملة[٣١] .

وتشير المصادر التاريخية إلى أن "البوكيرك" حينما خلف "دالميرا" بقيادة البرتغاليين في المياه الهندية بعث برسالة إلى شاه فارس ومما ورد فيها : "إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في البصرة . . . وسأنفذ لك كل ما تريد"[٣٢] . وأثمرت تلك الاتصالات عن عقد اتفاقية تعاون بين الجانبين عام ١٥١٥م أفاد منها البرتغاليون أكثر من الفرس حيث أمَّنوا جبهتهم وانصرفوا بالتالي لقتال الأتراك وانتصروا عليهم . وتضمنت الاتفاقية أن يقوم الفرس والبرتغاليون بالتحالف ضد الأتراك وتقوم بلاد فارس بإقامة مركز

تجاري في "غوا" لتمكين التجار الفرس من القيام بتجارتهم مع الهند[٣٣]. ورغم خطورة هذا التحالف وتهديده للمصالح العربية على سواحل الخليج العربي والبحر الأحمر والبحر العربي فقد خرج البرتغاليون والفرس من ساحات القتال مدحورين إذ لم تصمد التحالفات وسياسة حرق الأرض المزروعة والإرهاب أمام صلابة واستمرار المقاومة العربية. لذلك نصل إلى حقيقة واضحة وهي أن مساعي الشاه إسماعيل مع الدول الأوروبية عامة والبرتغال خاصة لم تسفر عن أكثر من شيئين هما : احتلال الخليج من قِبَل البرتغاليين، ومزيد من النزاع مع الأتراك وكانت أوروبا المستفيدة من ذلك[٣٤].

العثمانيون والبحرين

نشطت الدولة العثمانية خلال القرن السادس عشر في محاولاتها لإدامة نفوذها في الخليج العربي والتصدي للنفوذ البرتغالي بالمنطقة ونتيجة لتقدم النفوذ العثماني في العراق في عهد السلطان سليمان القانوني أرسل شيخ البحرين عام ١٥٣٤م رسالة إلى السلطان يدعوه لإرسال أسطول عثماني للدفاع عن البحرين أمام الهجمات الفارسية وقد انسحب الأتراك بعد فترة قتال وجيزة تاركين جزر البحرين لصراع جديد آخر بين الفرس والبرتغاليين وبعد احتلال العثمانيين لمدينة البصرة عام ١٥٤٦م أصبحت البحرين كجزيرة حدود تفصل بين القوى المتحاربة[٣٥]. ومعلوم أن الدولة العثمانية كانت قد أرسلت منذ عام ١٥٢٩م أسطولاً إلى مياه الخليج العربي ولكنه لم يلق الترحيب بسبب عدم وجود قاعدة له في المنطقة.

وخلال النصف الثاني من القرن السادس عشر استمر الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين للسيطرة على سواحل ومياه الخليج العربي وقد أعد العثمانيون حوالي سنة ١٥٥٣م أسطولاً مكوناً من سفينتين وسبعين صندلاً وكانت تحمل (١٢٠٠) من الأتراك الانكشارية. قاموا بهجوم على البحرين غير أن النجدات التي وصلت إلى البحرين من هرمز القريبة أسفرت عن فك الحصار وإرغام الأتراك على الانسحاب إلى البصرة[٣٦] وفي أثناء ذلك تزايدت المقاومة العربية ضد النفوذ

الأجنبي فمنذ عام ١٥٥٥م ثارت القبائل العربية ضد البرتغاليين في جزر البحرين وساحل القطيف واستنجدت بالأتراك الذين كانوا يحتلون العراق، في ذات الوقت استنجدت هرمز بالبرتغاليين وكانت البحرين تابعة لهم لذلك وصلت نجدة برتغالية لشيخ هرمز استطاعت إخراج الأتراك من القطيف ومن البحرين(٣٧) . وعاود العثمانيون هجومهم بعد عام ١٥٥٧م وتمكنوا من فرض سيطرتهم وحصارهم على البحرين غير أنه لم يقدر لهم البقاء فيهاأو في غيرها من مناطق الخليج العربي .

ويبدو أن العثمانيين لم يقوموا بعمل جدي لفرض سيطرتهم على المنطقة إلا في عام ١٥٥٩ حيث جهزوا حملة بحرية كبيرة قوامها (٢٠٠٠) من الانكشارية للسيطرة على البحرين إلا أن حملتهم هذه باءت بالفشل أمام أسطول برتغالي قوي جاء من الهند وتراجعوا إلى البصرة . وبذلك استمرت سيطرة البرتغاليين على البحرين(٣٨) وبرغم المجهودات الكبيرة التي بذلها العثمانيون في محاولتهم إزاحة النفوذ البرتغالي وتثبيت وجودهم السياسي والعسكري في الخليج العربي فإنهم أصيبوا بنكسات متعاقبة وذلك نتيجة لفقدهم لوحدة الأهداف السياسية في المنطقة فقد اضطروا لتبديل قادة الأساطيل في تلك المياه عدة مرات خلال سنة واحدة فقد تولى قيادة الأسطول التركي في سنة ١٥٥٢بدير بك ثم مراد بك وعلي ريس وغيرهم وهكذا كان لبعد المسافة بين بلادهم ومنطقة الخليج العربي ومحدودية إمكاناتهم البحرية أثره الواضح في إضعاف أنشطتهم التجارية والعسكرية بالمنطقة، وقد ترك العثمانيون أمر الخليج العربي وشأنه واكتفوا بالولاء الديني الذي يكنه عرب الخليج العربي لهم(٣٩) .

المقاومة العربية

استمرت مقاومة سكان الخليج العربي ضد الغزو البرتغالي والمتحالف مع الفرس للسيطرة على بلادهم والاستحواذ على خيراتها وجزرها البحرية وإن تعثرت القدرات العربية المحلية لأسباب أهمها عدم التعاون الوثيق بين الشيوخ العرب واستعانة بعضهم بالقوى الأجنبية في محاربة خصمه السياسي أو التجاري وكل ذلك أضعف المقاومة

العربيـة وقلـل مـن إمكانـات صمودهـا ونجاحها ورغم ذلك فقد شهدت هذه الفترة تعاون أهـالي هرمـز والبحريـن وصحار ومسقط مع شيخ هرمز في سبيل إنهاء الاحتلال البرتغالي لبلادهم كما أدت سياسة البرتغاليين القائمة على العنف والقسوة إلى زيادة التذمر واتساع روح التمرد لدى السكان العرب فحينما جرد البرتغاليون حملة بحرية كبيرة عام ١٥١٧م ضد البحرين وحاصروها، ارتدوا عنها أمام مقاومة شديدة أبداها سكان الجزيرة، إلا أن الغزوات البرتغالية استمرت رغم توقيع اتفاقية هرمز مع الفرس عام ١٥١٥م التي تضمنت أن تكون السفن الحربية البرتغالية في متناول أيدي الفرس لشن هجوم على البحرين والقطيف وأن يقوم بين الجانبين تعاون عسكري في منطقة الخليج العربي، إلا أن الأحداث اللاحقة برهنت على أن البرتغاليين لم ينعموا بالهدوء والاستقرار بسبب ثورات المواطنين العرب التي أشعلوها ضدهم[٤٠].

ويبدو أن أهم الثورات العربية كانت في عام ١٥٢١ وبهذا الصدد يذكر لنا "ويلسون" في كتابه "تاريخ الخليج" أنه بناء على تعليمات صادرة من الملك "دوم – نويل" عين بعض المسئولين البرتغاليين كمشرفين على الجمارك في هرمز، غير أن هؤلاء بسبب معاملتهم السيئة تسببوا في قيام ثورة شاملة في هرمز والبحرين ومسقط وقريات وصحار، وقتل خلال تلك الأحداث عدد كبير من البرتغاليين[٤١] وتم فيها مهاجمة جميع الحصون البرتغالية ليلة الثلاثين من تشرين الثاني، وأوشكت الخطة على النجاح لولا أن دب الخلاف بين أبناء الخليج العربي وخاصة بين شيوخ الجبريين وملوك هرمز، وانتهز البرتغاليون الفرصة فأرسلوا نجدات إلى هرمز التي تزعمت حركة المقاومة ضد البرتغاليين، وتبع ذلك نجاح القوات البرتغالية ومحاصرة أسطولها جزيرة البحرين ثم النزول فيها بعد قصفها بشدة، وخلال ذلك قاتل سكان مدينة المنامة بالشوارع القوات الغازية وأبدوا من ضروب الشجاعة ما لا يمكن وصفه[٤٢].

ولابد من التذكير هنا أن المؤرخين الأجانب ومنهم الفارسي "أدميات" في كتابه "جزر البحرين" يصف هذه الثورة بأنها تمرد ضد البرتغاليين إلا أنه

يعترف بقوتها وفاعليتها من خلال تركيزه على أن هجوم الثوار على مواقع البرتغاليين قد حدث في وقت واحد، هو الثلاثين من تشرين الثاني عام ١٥٢١م، أما المؤرخ التركي "أوزبران" فيتحدث عن هذه الثورة قائلاً : " لقد امتنع مقرن بن زامل عن دفع الجزية المطلوبة منه إلى هرمز ويضايق السفن التي كانت تبحر من البحرين وهرمز، وجمع لهذا الغرض السفن المزودة بالمقاذف التي عملت له من قِبَل بعض الأتراك، وفي هرمز كان هناك "ديوجولويس" الذي عين حاكماً للهند عام ١٥١٨ فوافق على انتداب ابن عمه "أنطونيو كوريا" ضد البحرين، وقد قتل مقرن خلال المعركة وأجبر البرتغاليون أهالي البحرين على دفع الإتاوة السنوية والتي يقدرها الرحالة البرتغالي "تكسيرا" بأربعمائة دوكات سنوياً(٤٣) . أما الفرس فقد وقفوا موقف المتفرج من هذه الثورة، ذلك أن الشاه إسماعيل لم يحرك ساكناً عندما شن الخليج العربي ثورته ضد البرتغاليين حيث خرج من تحالفه مع البرتغاليين خالي الوفاض وسلم بالأمر الواقع وهو الاحتلال البرتغالي للمنطقة، ومع ذلك فقد ظل الاحتلال البرتغالي يعاني من مقاومة عربية ففي عام ١٥٢٨م قُتل أخو نائب ملك البرتغال . . . في البحرين ذاتها(٤٤) .

أما السبب المباشر لطرد البرتغاليين من البحرين فهو مسلك حاكم البحرين من قِبَل البرتغاليين وكان قريباً لملك هرمز، فقد قتل حاكم البحرين عام ١٦٠٢م أحد تجار اللؤلؤ الأغنياء طمعاً في ثروته، ولكن شقيق القتيل استطاع أن يكسب ثقة الحاكم ثم ينتقم لأخيه ويستولي على القلعة واسم هذا الحاكم الجديد "ركن الدين بن مسعود" ولما كان هذا التصرف يثير عليه حاكم هرمز من قِبَل البرتغاليين ولا قِبَل له بمحاربته، فقد طلب ركن الدين حماية حاكم شيراز الفارسي، فأرسل هذا قوة استولت على البحرين باسم شاه إيران، وفي سنة ١٥٨٠م كانت البرتغال قد اتحدت مع أسبانيا تحت حكم الملك فيليب فاحتج ملك أسبانيا على ذلك الإجراء، فما كان من حاكم هرمز إلا أن استعد لاستعادة البحرين، ولكنه فشل حيث استولى "الله وردي خان" على بوشهر عام ١٦٠٣م وكانت تابعة لحاكم هرمز، ولكن الشاه وبسبب هذا التصرف من حاكم شيراز أمره بالانسحاب وإعادة البحرين وبوشهر إلى البرتغال . ولكنه تجاهل أمر

الشاه الذي كان واقعاً تحت ضغط أسبانيا والبرتغال لاسترداد مافقدته، ولكن البرتغاليين نجحوا في الاستيلاء على بندر عباس وأقاموا فيها ميناء كي يضاهي ميناء هرمز(٤٥).

وشهد النصف الأول من القرن السادس عشر أحداثاً هامة تمثلت في ظهور النشاط الإنجليزي في منطقة الخليج العربي ممثلاً بشركة الهند الشرقية، مما دفع بالفرس إلى التخلي عن الحليف البرتغالي الذي أخذ يعاني متاعب كثيرة والبحث عن حليف جديد، وهكذا تحالف الشاه عباس مع الشركة المذكورة في محاربة النفوذ البرتغالي وإزاحته من المنطقة، ووضع أسطول الشركة تحت تصرف الشاه وفق شروط منها :

١ - تقسيم الغنائم بالتساوي بين الشركة والفرس.

٢ - تقسيم أسرى الحرب حسب الأديان فيسلم الأسرى المسيحيون إلى الإنجليز والأسرى المسلمون إلى الفرس.

٣ - تسليم القلعة البرتغالية في هرمز إلى الإنجليز على شرط أن يسمح للفرس بإقامة قلعة خاصة بهم في البحرين(٤٦).

وفي ٢٢ نيسان عام ١٦٢٢ سلم الأمير البرتغالي للأسطول الإنجليزي الذي حاصر هرمز وسلمه الإنجليز بدورهم إلى الجانب الفارسي حسب الاتفاق. وهكذا تم إنزال العلم البرتغالي من على قلعة البوكيرك بعد أن ظل يرفرف عليها أكثر من مائة عام، وكان سقوط هرمز بمثابة الضربة القاضية لهيبة البرتغاليين في منطقة الخليج العربي(٤٧).

يمكننا أن نستنتج أن هناك عوامل عدة أدت إلى انهيار النفوذ البرتغالي في المنطقة، يأتي في مقدمتها اتحاد العرشين الأسباني والبرتغالي في سنة ١٥٨٠م ولقد توجه اهتمام هذه الدولة بشكل رئيسي نحو مستعمراتها في أمريكا كما أن تعصب البرتغاليين وقسوتهم إلى جانب جشع حكامهم وموظفيهم، جعلهم مكروهين بين سكان الخليج العربي فضلاً عن ظهور قوى أوروبية أخرى منافسة لهم وبخاصة الإنجليز والهولنديين، إضافة إلى نجاح اليعاربة في اكتساح البرتغاليين وطردهم من كثير من الثغور الواقعة على الخليج

العربي وعلى الساحلين الهندي والأفريقي وتزايد حالة الرفض والمقاومة العربية للوجود الأجنبي هناك(٤٨) ولعل في ثورة عرب الخليج الشاملة عام ١٥٢١م ما يعطينا الدليل الملموس على ذلك، وبأن العرب قد نجحوا فعلاً في إنهاك القوات البرتغالية من خلال التحرش بسفنها وعرقلة تجارتها ومهاجمة حصونها المتواجدة على سواحل الخليج العربي، وهكذا تم طرد البرتغاليين من المنطقة بأكملها بعد احتلال دام ١٤٣ عاماً(٤٩).

د . صبري فالح الحمدي

كلية التربية – الجامعة المستنصرية
بغداد

الهوامش

١ – أنظر : Sanger, R.H.; The Arabian Peninsula (New York) 1964. pp. 40 - 41.

٢ – Gurzon, George; Persia and the Persian question, vol. II, Edinburge, 1852, p. 417.

٣ – جمال القيطاني : ابن بطوطة في الخليج العربي، مجلة العربي، العدد ٢٤٥، نيسان ١٩٧٩، ص.ص. ٧٠ – ٧١ .

٤ – محمود بهجت سنان : البحرين درة الخليج العربي، بغداد ١٩٦٣، ص ٢ .

٥ – د. محمود علي الداود : أحاديث عن الخليج العربي، ط. ٢، بغداد، وزارة الإرشاد . ص ٣١

٦ – أنظر د. محمد عبد الله العزاوي : التحالفات الفارسية الأوروبية ضد عرب الخليج ١٦٩٥ – ١٧٢٢م، مجلة الخليج العربي، السنة ١٥، المجلد ١٩، العدد ٢، جامعة البصرة ١٩٨٧، ص ٣٨ .

٧ – أعرف مدينتك : البحرين تاريخ مجيد وحاضر مزدهر، مجلة المدينة المنورة، منظمة المدن العربية، العدد الثلاثون، السنة السابعة،الكويت آذار، ١٩٨٨، ص ٤٢ .

٨ – د. جمال زكريا قاسم : الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي، أصول المشكلة وتطورها التاريخي، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد آذار، ١٩٧٣، ص ٦٤٤ .

٩ – أنظر : Hopwood, Derek; The Arabian Peninsula, Society and Politics, London, 1970, p. 40.

١٠ – د. محمود علي الداود : العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ١٥٠٧ – ١٦٥٠، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الثاني، مطبعة العاني، بغداد، شباط ١٩٦٠، ص ٢٣٤.

١١ – أنظر : Alboquerque, Alfonso; The commentaries of (trans) into English by W-de Gray Birch Hakl Soc. (London 1973) Vol. I. P. 115.

١٢ – صالح أوزبران : الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ – ١٥٨١، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٩، ص ١٧ . والمعلوم أن البوكيرك عرف باتباعه سياسة حرق الأرض والمدن العربية الرافضة لسيطرته .

١٣ – د. جمال زكريا قاسم : الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي، مجلة الوثيقة العدد١٢، السنة السادسة، مركز الوثائق بدولة البحرين، كانون الثاني ١٩٨٨م ص ص ٤٢ – ٤٣ .

١٤ – أمين سعيد : الخليج العربي، دار الكاتب العربي، بيروت د. ت. ص ٦٦ . عن الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي يمكن الرجوع إلى د. عبد الأمير محمد أمين : دور القبائل العربية في صد التوسع الأوروبي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد، آذار ١٩٧٣، ص ٦٥١ .

١٥ – س. ب. مايلز : الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، ١٩٨٢، ص ١٦٢، وأنظر أيضاً د. بدر الدين الخصوصي : الدولة الصفوية في مواجهة التحديات، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٤٤، السنة ١١، الكويت تشرين الأول، ١٩٨٥، ص ١٦٢ .

١٦ – إبراهيم خلف العبيدي : الحركة الوطنية في البحرين، بغداد ١٩٧٦، ص ٢٢ .

١٧ – أرنولد ويلسون : تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط ٢، ١٩٨٥، ص ٨٢ .

١٨ – أوزبران : المصدر السابق ص ص ٢٥ – ٢٦ .

١٩ – اليعاربة قبائل عربية من عمان، سجلت أمجاداً بحرية في مقاومة الاستعمار البرتغالي لمنطقة الخليج العربي .

٢٠ – قاسم : المصدر السابق، ص ص ٢٥ – ٢٦ .

٢١ – سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي، دار الرشيد، بغداد ١٩٨٢، ص ٥٢ .

٢٢ – **Fereydaum, Adamiyat; Bahrain Islands, a legal diplomatic study of the British-Iranian Controversy, New York, 1935, p. 20.**

٢٣ – لمزيد من التفاصيل أنظر علي غنام : إحلال النفوذ الأجنبي بالخليج العربي (دور الدولة الصفوية)، مجلة الخليج العربي السنة ١٣، المجلد ١٧، جامعة البصرة، ١٩٨٥، ص ١٤ .

٢٤ – الحاج عبد الله ولسن : جولة في الخليج العربي، ترجمة سليم طه، بغداد ١٩٦٢، ص ٢٣.

٢٥ – صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٢ .

٢٦ – ج.ج. لوريمر : دليل الخليج، القسم التاريخي، الجزء الثالث، ترجمة ديوان حاكم قطر، الدوحة١٩٦٧، ص ١٢٦٧، أنظر أيضاً الخصوصي : المصدر السابق، ص.ص. ١٦٣ – ١٦٤ .

٢٧ – الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي، جـ ١، ط ١، دار السلاسل، الكويت ١٩٧٨، ص ٢٩ .

٢٨ – Fereydaum; op. Cit. P. 23.

٢٩ – تكسيرا : رحالة برتغالي قام برحلته عام ١٦٠٤، ترجم بعض مذكراته جعفر الخياط، وأهميتها تتصل بوجود ملاحق فيها مثل سلسلة ملوك هرمز . أنظر د. طارق نافع الحمداني : محاضرات، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ١٩٨٨م .

٣٠ – Alboquerque; op. Cit., pp. 114 - 115.

٣١ – قاسم : المصدر السابق، ص ٤٣، أنظر أيضاً طه : المصدر السابق ص ٥٣ .

٣٢ – أنظر Alboquerque; op. Cit., p.115.

٣٣ – لمزيد من التفاصيل عن التعاون البرتغالي–الفارسي يمكن الرجوع إلى :

Danvers, F.S. .... London, 1894, p. ....

٣٤ – محمد جاسم : القوى الكبرى في الخليج، مجلة آفاق عربية، العدد الثامن السنة الثانية عشرة، آب ١٩٨٧، ص ١١ . أنظر أيضاً غنام : المصدر السابق ص ١٥ .

٣٥ – الداود : أحاديث، ص ٣٢، أنظر أيضاً أوزبران : المصدر السابق، ص ٥٤ .

٣٦ – محمد عدنان مراد : صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي، دار دمشق للطباعة، ١٩٨٤، ص ١٤ .

٣٧ – أنظر ويلسون : المصدر السابق، ص ٨٥ .

٣٨ – للتفاصيل عن تلك الحملة العسكرية يمكن الرجوع إلى : Danvers; op.Cit. P. 514.

كذلك أنظر العبيدي، المصدر السابق ص ٢٢ .

٣٩ – الداود : العلاقات، ص ٢٣٧، أنظر أيضاً الخصوصي : المصدر السابق ص ٢٦ .

٤٠ – د. علاء كاظم تورس : السياسة الإيرانية في الخليج العربي إبان عهد كريم خان ١٧٥٧ – ١٧٧٩، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ١٩٨٢، ص ١١٨، وانظر أيضاً طه : المصدر السابق، ص ٥١ .

٤١ – ويلسون : المصدر السابق، ص ٨٠ .

٤٢ – أنظر عباس أحمد العصفور : صراع الخليج العربي ضد المطامع الأجنبية في العصر الحديث، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد، آذار ١٩٧٣، ص ١٢٥ .

٤٣ – Fereydaun; op. Cit. P.P. 21 - 22.

أنظر أيضاً أوزبران : المصدر السابق، ص ص ٢٠ – ٢٦ .

٤٤ – أنظر سيد نوفل : الخليج العربي أو الحدود الشرقية للوطن العربي، دار الطليعة بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٤، كذلك أنظر غنام : المصدر السابق، ص ١٤ .

٤٥ – أحمد محمود صبحي : البحرين ودعوى إيران، بغداد، تموز ١٩٦٢، ص ٦٧ .

٤٦ – العقاد : المصدر السابق، ص ٢٤ .

٤٧ – الداود : المصدر السابق، ص ٢٤٦، وانظر أيضاً ويلسون : المصدر السابق، ص١١٢ .

٤٨ – د. صالح محمد العابد : دور القواسم في الخليج العربي، ١٧٤٧ – ١٨٣٠، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٦، ص ص ٣٣ – ٣٤ .

٤٩ – النداوي : المصدر السابق ص ١٠ .